MODERN DİLBİLİM ÇALIŞMALARI IŞIĞINDA İBN HALDUN'DE DİLBİLİMSEL TERİMLER

Abdelalim BOUFATAH*

Öz: Bu makale İbn Haldun'un modern diller ışığında dilbilim terimleri alanındaki çalışmalarını ele alır. Dilbilim alanında çalışma yapan araştırmacılar, İbn Haldun'un sosyoloji ve tarih alanlarında yeterliliğine dikkat çekerken onun bu alan dışında ilim ve sanat sahalarında da önemli bir yeri olduğunu dile getirir. Dilbilim araştırmalarında İbn Haldun'un ihtimam gösterdiği en önemli konu terim meselesi olup üzerinde çalıştığı alanlar şunlardır: Dil, nahiv, belagat, beyan ve edebiyat vb. Bununla birlikte İbn Haldun, dilbilim terimlerinin ve onların kullanıldığı alanların gelişmesine önemli katkılar sağlamıştır. Bu makalede, modern dilbilim çalışmalarıyla karşılaştırarak İbn Haldun'un dilbilimine terimsel olarak bakış açısını ve bu alandaki kıymetli katkılarını ele alacağız.

Anahtar Kelimeler: Terim, Dilbilim, İbn Haldun, Nahiv, Dil Bilgisi, Beyan, Belagat.

THE LINGUISTIC IDIOM TO IBN KHALDOUN WITHIN MODERN LINGUISTIC STUDIESE

Abstract: This article deals with the study of linguistic idiom to Ibn Khaldoun in the light of modern linguistics. Ibn Khaldoun's name is very recurrent in the fields of sociology and history, and after all, the searcher in the field of linguistics finds a significant presence of him in all kinds arts and sciences as well as language sciences. One of the most important areas of the linguistic research in Ibn Khaldoun's views is the idiom or the concept to which he showed a clear interest by discussing several linguistic concepts and idioms like language, grammar, rhetoric, literature… and other current concepts in the Arabic language sciences. By doing that Ibn Khaldoun has greatly participated in developing the linguistic idiom and setting its indications in addition to showing the fields where it is applied… this is what we shall discuss in this article which deals with Ibn Khaldoun's view of Language Sciences concerning the idiom, and the value of his efforts in this area, in comparison with the modern linguistic lesson.

* Prof. Dr., Arap Dili ve Edebiyatı, Edebiyat ve Diller Fakültesi, Laghouat Üniversitesi, Cezayir (abdelalimboufatah@yahoo.fr).

Keywords: Idiom, language, Ibn Khaldoun, linguistics, modern, science, grammar, literature, rhetoric, talent, inclination, diction, de Saussure, Chomsky.

المصطلح اللغوي عند ابن خلدون على ضوء اللسانيات الحديثة

ملخـــــص: يتناول هذا المقال دراسة للمصطلح اللغوي عند ابن خلدون، على ضوء اللسانيات الحديثة. ومع أنّ اسم ابن خلدون يتردد في مجال علم الاجتماع والتاريخ ، فإنّ المتتبع لجهوده في مجال البحث اللساني يجد لديه حضوراً مهمّاً في سائر العلوم والفنون، ومنها علوم اللغة. ومن أهم جوانب البحث اللغوي عنده قضية المصطلح الذي أبدى فيه اهتماماً واضحاً من خلال مناقشته لعدة مصطلحات لسانية، مثل: اللغة والنحو والبلاغة والبيان والأدب.. وغيرها من المصطلحات المتداولة في علوم اللسان العربي. وبهذا يكون ابن خلدون قد أسهم إسهاماً مفيداً في تطوير المصطلح اللساني وتحديد دلالاته وبيان مجالات توظيفه.. وهذا ما سنعالجه في هذا المقال الذي يتناول نظرة ابن خلدون لعلوم اللسان من جهة المصطلح، وقيمة جهوده من هذا الباب، في مقاربة مع الدرس اللساني الحديث.

الكلمات المفاتيح : المصطلح ، اللغوي ، ابن خلدون ، اللسانيات ، الحديثة ، لسان ، علم ، النحو ، اللغة ، البيان، الأدب ، البلاغة ، الملَكة ، الذوق ، دي سوسور ، تشومسكي.

توطئـــــــة :

من المعلوم أنّ ابن خلدون عالم اجتماع ومؤرخ ومنظّر في مجال العمران وشؤون الأمم والمجتمعات. وهذه أمور لا يختلف حولها اثنان.. ولعلّ أول ما يفكّر فيه الدارس لهذه العلوم هو البحث في مقدمة ابن خلدون لتحقيق مسائله وضبط معارفه. غير أنّ الباحث في مجال علم اللسان ربّما لا يفكّر كثيراً في هذا الأمر، إن لم نقل بأنه لا يخطر في ذهنه، لأنّ ثمة مصادر تنظيرية متخصصة في هذا المجال.. ولكن يغيب عن الكثير من الباحثين أنّ لابن خلدون أفكاراً لسانية متميزة جديرة بالبحث والدراسة والإثراء؛ وهو لم يقف عندها مطوّلاً، لأنه لم يكن منشغلاً بها لذاتها، وإنما كان ذلك ضمن الإطار النظري من أجل استكمال البحث في قضايا أخرى اجتماعية وتاريخية، وغيرها.. وعلى الرغم من كل هذا، فإننا نجد عند ابن خلدون كثيراً من الآراء اللغوية التي لا ينبغي المرور عليها من غير استثمارها في البحث اللساني، لما لها من قيمة علمية جليّة، وما تحويه من أفكار تجديدية تتصل بالبحث اللساني المعاصر...

ولما كان النظر في المصطلح من أبرز الجوانب اللغوية الجديرة بالبحث عند ابن خلدون، رأينا أن نخصص هذه الورقة للحديث ،بشيء من التفصيل، عن المصطلح اللغوي عنده، ونتوقف عند ما استعمله من مصطلحات، وما أبداه من أفكار وآراء في ثنايا حديثه عن علوم اللسان العربي..

علوم اللسان ومراتبها عند ابن خلدون:

إنّ اللغات تتمايز فيما بينها، على اعتبار أنه « لكل لغة نظام أو بناء خاص يختلف عن أي نظام أو بناء لأية لغة أخرى من لغات العالم، ولكل نظام لغوي مميزات تميزه عن أي نظام لغوي غيره، وهذه المميزات التي تميز اللغات عن بعض تسمى: عناصر البناء اللغوي.» [1] وإذا نظرنا إلى لغة العرب وجدنا ابن خلدون يطلق على علوم اللغة العربية مصطلح « علوم اللسان » ويجعلها في أربعة أقسام هي: (النحو، واللغة، والبيان، والأدب.) ويجعل معرفتها شرطاً في معرفة العلوم الشرعية. وسنقدّم فكرة عن نظرة ابن خلدون لهذه العلوم، قبل الانتقال إلى كل منها بالشرح والتفصيل والتعليق.

[1] د. سميح أبو مغلي: في فقه اللغة وقضايا العربية – دار مجدلاوي – عمان – الأردن. ص69

أولاً: علم النحو عند ابن خلدون :

النحو في اللغة العربية هو دستورها وقانونها، وعمودها الذي يحفظ لها قوامها، وهو يشمل فروعها على تنوعها، ولعلّ أحسن تعريف له ما قاله ابن جني من أنه « انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب، وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها ، وإن لم يكن منهم، وإن شذّ بعضهم عنها ردّ به إليها . وهو في الأصل مصدر شائع، أي: نحوت نحوا: كقولك: قصدت قصدا، ثم خصّ به انتحاء هذا القبيل من العلم.» [2]

فالنحو عند ابن جني هو الكلام الصحيح السليم من اللحن، على طريقة العرب وسجيتهم. وهو في نظره يعلّم المستعربين ليكونوا مثل العرب في الفصاحة والبلاغة. وقد شمل هذا التعريف عدة فروع من علوم العربية كالدراسة الصرفية والصوتية والتركيبية، وغيرها.

ولم يستقرّ النحو على تعريف واحد، فمن الباحثين من يرى أنه يجب « أن تشتمل القواعد النحوية على أساليب اللغة من جميع جوانبها، ومنهم من يقصرها على ضبط أواخر الكلمات ومعرفة بنيتها واشتقاقها وتصرّفها ولعلّ منشأ هذا الخلاف في تحديد دائرة النحو راجع إلى صلة هذا العلم بالفروع الثقافية العربية الأخرى ، فإنّ علم النحو هو فرع من علوم العربية.» [3] وهو قانون اللغة الذي لا غنى عنه، إذْ إنّ الجهل به عند ابن خلدون يؤدي إلى الاختلال في عملية التواصل، وبذلك يتعطل التفاهم. إذ يقول: « والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة.»

وابن خلدون لا ينظر إلى النحو على أنه صناعة القواعد والوقوف عندها، وإخضاع كل كلام لقانونها لصارم، حتى وإن كان هذا الكلام ممّا نطقت به العرب على سجيتها، أو ما جاء في التنزيل الحكيم. وقد ضاق ابن خلدون بالنحاة الذين يتعقبون كل كلام بالإعراب، من غير تحقيق في المقاصد والدلالات. فنجده يعرض عنهم قائلاً « ... ولا تلتفتنّ في ذلك إلى خرشفة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق..» [4]

إنّ هذا الإعراض لدليل على أن مذهب ابن خلدون هو نحو المعنى والتراكيب لا نحو الألفاظ والمفردات. ذلك أنّ هذا المستوى يتناول دراسة التراكيب، إذْ يقوم الباحث بالتركيز على الجملة وتركيبها، وما يطرأ عليها من تقديم وتأخير وحذف وزيادة، وغير ذلك . ويبدو أن معظم علماء اللغة العربية القدماء وكثيرين من المحدثين ينظرون إلى النحو على أنه هو علم اللغة.. وممّا هو بيّن واضح أنّ التركيز على المادة النحوية بقواعدها وقوانينها وتطبيقاتها عند كثير من الدارسين القدماء والمحدثين ، جعلها تكون بمثابة الرديف لمصطلح علم اللغة ودراسته. وهذا نهج النحاة الأوائل، وهو غير نهج كثير من النحاة المتأخرين الذين زهدوا في النحو..

وابن خلدون لا يخرج عن النهج الصحيح الذي رسمه النحاة الأوائل مثل الخليل بن أحمد وسيبويه وابن جني وغيرهم، فهو يثني على كتاب سيبويه ويصفه بأنه « لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم، فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملَكة. أمّا المخالطون لكتب المتأخرين العارية من ذلك إلاّ من القوانين النحوية مجردةً عن أشعار العرب وكلامهم، فقلّما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة، أو ينتبهون لشأنها، فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب، وهم أبعد الناس عنه.» [5]

---

[2] ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب العلمية : 234/1.
[3] د/ عبد العزيز عتيق: المدخل إلى علم النحو والصرف : ص135
[4] ابن خلدون: المقدمة : طبعة دار الكتاب اللبناني– بيروت – لبنان: ص 1082
[5] المصدر نفسه: ص1083

التكامل بين النحو والبيان (البلاغة):

عندما يتكلم ابن خلدون عن البيان، ينبغي علينا أن نميز أي بيان يقصد: علم البلاغة أم علم البيان الذي هو أحد فروع البلاغة، كما عُرف عند السكاكي؟ إنه يقصد هذا تارة، وذاك تارة أخرى. ولقد تكلّم عن البيان وصلته باللغة بمفهومها الحديث الشامل الذي يضم المستويات اللغوية كلها. وكان تركيزه أكثر على صلة البيان بالنحو؛ وهذا ما يجعلنا نستنتج أنه يريد بالبيان مفهومه الشامل الذي يعني: علم البلاغة. بدليل استعماله لمصطلحات البلاغة: كالمقاصد، والدلالة، وأحوال المخاطبين، وما تقتضيه الحال، والإفادة، والمقام والمقال.. فهذه كلها مصطلحات بلاغية، يشملها علم المعاني، وهو أحد فروع البلاغة. غير أن ابن خلدون لا يعني علم المعاني وحده، لأنه مصطلح (علم المعاني) يقابل عنده مصطلح (علم البلاغة). وهو لم يستعمل ههنا مصطلح (علم البلاغة)، وإنما استعمل مصطلح (علم البيان) الذي يشمل عنده كل علوم البلاغة.

يتكلم ابن خلدون هنا عن علاقة البلاغة بالنحو. الذي يجعله : « .. من العلوم اللسانية، لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده، ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني، وذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي: إمّا تصوّر مفردات تسند ويسند إليها، ويفضي بعضها إلى بعض؛ والدلالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف. وإمّا تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة، ويُدَلّ عليها بتغيير الحركات، وهو الإعراب وأبنية الكلمات. وهذه كلها صناعة النحو. ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات، المحتاجة للدلالة، أحوالُ المخاطبين أو الفاعلين، وما تقتضيه حال الفعل، وهو محتاج إلى الدلالة عليه، لأنه من تمام الإفادة. وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه، وإذا لم يشتمل على شيء منها، فليس من جنس كلام العرب، فإن كلامهم واسع؛ ولكل مقام عندهم مقال يختص به، بعد كمال الإعراب والإبانة..» [6]

إنّ هذا الكلام يشمل عدة قضايا لغوية مهمّة، غير أنّ الأمر الأكثر أهمية الذي يتناوله هو علاقة النحو بالبلاغة. وهي قضية اختلفت فيها آراء المحدثين. فبعد أن كانت علوم العربية علماً واحدا، متكامل الجوانب، متحد الأجزاء. جنحت – مع تطور البحث والدراسة – إلى الانفصال والاستقلال، لتتولّد عن الأصل الواحد عدة فروع.

ومن نتائج هذا الانفصال أنْ صارت البلاغة علْماً مستقلاً بذاته، وتباينت آراء الباحثين وأفكارهم، بين من يدعو إلى وجود تكامل بينهما لا سبيل إلى إنكاره، ومن يدعو إلى اختصاص كل علم بمجاله المستقل عن الآخر.

ولقد أخذ كثير من الباحثين في العصر الحديث بمبدأ الفصل بين العلْميْن، ومن هؤلاء على سبيل المثال ما يراه الباحث أحمد الشايب من أنّ « النحو يرشدنا إلى بناء الكلمات اللغوية وتصريفها وبيان علاقاتها معا في الجمل والعبارات، ثم يعيننا كذلك في تكوين التراكيب الصحيحة والفِقَر المترابطة الأجزاء . وبذلك تنتهي مهمته ما دام حقّق لنا صحة العبارة في ذاتِها بصرف النظر عن صلتها بالقرّاء أو السامعين. وعلى الفن البلاغي بعد ذلك أن يتصرف في العبارة ،مع بقاء صحتها، تصرّفا يجعلها سلِسَة قوية التأثير بعيدة عن التنافر سهلةً قريبة الفهم. فقد تكون العبارة صحيحة التكوين النحوي ، ولكنها مع ذلك سقيمة التراكيب صعبة الفهم لا ترضي الذوق « [7]

والحقيقة أنّ بين العلْميْن تكاملاً، إذْ يبدأ النسيج الكلامي بالنحو وينتهي بالبلاغة، فلا تتم عملية التواصل والتفاهم إلاّ بتوفّر الشروط النحوية للتراكيب من جهة السلامة وانتهاج سنن الكلام العربي، ثم تأتي المقاصد والدلالات بعد ذلك، بحسب المقامات ومقتضيات الأحوال.. وهذا دليل على تكامل العلْميْن، وصعوبة الفصل بينهما فإن كان ثمّة فصل، فإنما هو فصل منهجي على المستوى النظري، أمّا على المستوى التطبيقي فلا يمكن الفصل بينهما في دراسة التراكيب والنصوص وما تحمله من المقاصد والدلالات.. وهذا ما صرّح به ابن خلدون بقوله: « ... فإن كلامهم واسع؛ ولكل مقام عندهم مقال يختص به، بعد كمال الإعراب والإبانة..» [8]

---

[6] ابن خلدون: المقدمة ، ص 1083

[7] أحمد الشايب : الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية ، ط/8 (1939): 1/ 26.

[8] ابن خلدون: المقدمة ، ص 1064

ثانياً: علم اللغة عند ابن خلدون :

اللغة وعاء الفكر، وهي ظاهرة اجتماعية، وهي المرآة التي تعكس حالة المجتمع وتكشف عن مستواه الثقافي والتاريخي والحضاري. ودراسة اللغة بدأت شاملة وانتهت مجزّأة، وفق ما تقتضيه معطيات العصر من تجزئة الظواهر وتفصيلها، وجنوحها نحو التخصص. ويعرف دي سوسور اللغة بأنها « تنظيم من الإشارات الفارقة..» [9] وتعني كلمة تنظيم مجموعة القضايا التي تحدد ضمن اللغة استعمال الأصوات والصيغ والتراكيب وأساليب التعبير النحوية والمعجمية وغيرها.

إنّ المنهج الحديث في دراسة اللغة يستدعي « تجزيء الظاهرة اللغوية إلى المستويات الأربعة ، ثم نفحص كل مستوى على حده في محاولة لبناء نموذج أو صورة للغة لكي نستطيع تفسيرها وإلقاء الضوء عليها. « [10] لأن ذلك يسهم في تسهيل عملية الوصف والبحث في اللغة ويوضح معالم دراستها، « وإن كانت الحدود بين هذه المستويات غير واضحة تماما كما قد نحبّ أن يكون.» [11] وتختلف نظرة اللسانيين إلى اللغة باختلاف اتجاهاتهم، فهي حسب الاتجاه البنيوي تنطلق من مبدأ سلوكي، وهي حسب الاتجاه لتوليدي تنطلق من مبدأ عقلي. [12]

ومنطلق اللغة في المنهج الحديث هو الأصوات، والأصل فيها هو النطق. كما يعرفها ابن جني هي: « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم» فاللغة على هذا معتمدها النطق قبل الكتابة. وهذا ما يراه ابن خلدون عندما نجده يركز على استعمال اللغة، وعلى الملكة اللسانية التي يجعل أساسها الاعتماد على السمع. كما أنه يركز على المقاصد والدلالات. فهو يمزج بين مستويات لسانية متعددة، ويجمعها تحت مصطلح واحد هو (علوم اللسان).

وإذا نظرنا في منطلقات الدراسة ومنهجها عند ابن خلدون، وجدناه يستعمل عدة مصطلحات لغوية، مما يوحي بأنه يجزّئ علوم العربية، غير أن الواقع هو أنه يهدف من وراء ذلك إلى بيان معالمها، وتمييز بعضها من بعض، بغية التعريف بها وبمجالاتها، وهو منزع منهجي تنظيمي يسلكه لتحديد معالم البحث والدراسة.

ومن هذا التمييز لغرض التعريف وبيان مجال الدراسة تحديده للّغة بأنها تتصل بالقوانين النظرية العامة، وتمييزه لفقه اللغة على أنه متصل بالاستعمال التطبيقي للغة. يقول ابن خلدون: « .. لما كانت العرب تضع الشيء لمعنى على العموم، ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظاً أخرى خاصة بها، فرّق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال، واحتاج الناس إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ، كما وُضع الأبيض بالوضع لكل ما فيه من بياض، ثم اختُصّ ما فيه بياض من الخيل بالأشهب، ومن الإنسان بالأزهر، ومن الغنم بالأملح، حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحناً وخروجاً عن لسان العرب..» [13]

فهذا الكلام يدْرك منه ما عناه ابن خلدون باللغة وبفقه اللغة، تشبيها للغة بالأبيض، ولفقه اللغة بالأشهب والأزهر والأملح، وهي كلها ألوان جزئية متفرعة عن اللون الأساسي الذي هو الأبيض. وعلى هذا يكون علم اللغة عنده أعم وأشمل من فقه اللغة. وهو مذهب بعض المنظّرين من اللسانيين المحدثين، في مقابل الأخذ بعكس ذلك عند آخرين..

هذا، ومن المعلوم أنّ ثمة تداخلا بين علم اللغة وفقه اللغة، بحيث يصعب التفريق بينهما عند علماء اللغة واللسانيات، ومرد هذه الصعوبة إلى كون « جلّ مباحثهما متداخل لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب، قديماً وحديثاً. وقد سمح هذا التداخل أحياناً بإطلاق كل من التسميتيْن على الأخرى.»[14] .

---

[9] ف. دي سوسور: دروس في الألسنية العامة: محمد شاوش، وآخرون، الدار العربية للكتاب، تونس(د.ط) 1985، ص111

[10] د. ميشال زكريا: الألسنية (علم اللغة الحديث: مبادؤها وأعلامها) ص38

[11] د. عاطف مدكور: علم اللغة بين القديم والحديث: دار الثقافة للنشر والتوزيع- مصر (1986م) ، ص8

[12] ماريوباي: أسس علم اللغة : ترجمة وتعليق: د/ أحمد مختار عمر: ط. عالم الكتب، /ط2 (1408هـ / 1987 م) 43

[13] ابن خلدون: المقدمة: 1060

[14] د/ صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة – دار العلم للملايين - بيروت، ص22

وفي هذا الشأن يرى ابن خلدون أنّ علماء العربية الأوائل كالخليل وسيبويه وأمثالهما كانوا قد وضعوا القوانين العامة المشتركة في اللغة، وتركوا الفروق والتفصيلات لفقهاء اللغة

ونجد تمييزاً آخر عند ابن خلدون بين اللغة والنحو، من خلال بيانه لمهمة اللغوي ومهمة النحوي، فشأن اللغويّ عنده هو أن ينقل ما قالته العرب ويصفه، أمّا شأن النحوي والمعرب فهو أن يجتهد في الإبانة عمّا فيه ويعمل فكره في تدبّر معانيه. يقول ابن خلدون: « وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر. فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة.»[15]

ولقد عُدّ مصطلح (اللغة) عند علماء العربية الأوائل فرعاً من فروع اللغة العربية.. أمّا في الدراسات الحديثة فقد أصبح هذا المصطلح يشمل تلك الفروع جميعها، تحت ما يسمى بـ» مستويات التحليل اللساني. ويتفق اللسانيون على أنّ الغاية الأساسية من اللغة هي إيصال المعاني والتعبير عن المقاصد. وهذا ما نجده عند العلاّمة ابن خلدون الذي يربط اللغة بمقاصد المتكلم، باعتبارها ملكة لسانية يتميز بها الناطق باللسان العربي المبين..

بين اللسان واللغة:

يستعمل ابن خلدون مصطلح « اللسان « بدلاً من مصطلح» اللغة « الذي أصبح شائعاً في الدراسات اللسانية الحديثة. وهو مصطلح أدقّ وأدلّ على المراد من مصطلح» اللغة «. وهو عندما يستعمل هذا المصطلح [أي اللغة] فإنه يعني به ذلك العلم الذي يعد فرعاً من فروع اللغة العربية وعلومها. فاللسان العربي عنده كلّ واللغة جزء من هذا الكلّ.

ويتضح مراده من هذا المصطلح في ثنايا كلامه عن ضرورة تعلّم اللغة العربية بكل فروعها، ومن هذه الفروع يذْكر (اللغة) إلى جانب الفرو الأخرى. إذْ يقول: « ...ثم نظام اللغة العربية نفسه التي هي لغة النص القرآني، لغة الأمة. إذ لا بد لمن ينتج نصاً فقهياً أو تفسيرياً أو حكماً جديداً أن يمتلك سلطة معرفية معترفاً بها، أي أن يكون عالما بالعربية مستوعباً لبيانها وأساليبها في التعبير والخطاب والدلالة والبلاغة والقول والنحو والصرف، فاللغة والنحو والبيان والأدب معرفتها ضرورية على أهل الشريعة فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة...» [16]

الملكة اللسانية عند ابن خلدون:

الملكة اللسانية أو الكفاية اللسانية من أبرز ما تقوم عليه نظرية تشومسكي التوليدية، فهو يسمي القدرة على إنتاج الجمل وتفهمها في عملية تكلم اللغة بالكفاية اللغوية، هذه الكفاية قد انطبع الإنسان عليها منذ طفولته، وخلال مراحل اكتسابه للّغة، وهي بمثابة ملَكة لا شعورية تجسّد العملية الآنية التي يؤديها متكلم اللغة، بهدف صياغة جمله، وذلك طبقاً لتنظيم القواعد الضمنية الذي يربط بين المعاني والأصوات اللغوية. وطبيعة الملكة عند ابن خلدون – سواء أكانت في لسان العرب أو في لسان العجم – إنّما تتحقق بكثرة الدربة والمران ومعاودة الممارسة، إلى أن ترسخ وتستحكم لدى المتعلّم المواظب عليها.. وأمّا ما تقوم عليه الملَكة في المقام الأول كما يرى ابن خلدون فهو الحاسة السمعية. وأهمّ مظهر تتجلى فيه الملكة عند ابن خلدون هو المظهر الصوتي، لذلك ربطها بالسمع، إذْ يقول: « ... والسمع أبو الملكات اللسانية..» [17]

---

[15] مقدمة ابن خلدون: ص1055.

[16] المصدر نفسه:: ص1056.

[17] ابن خلدون: المقدمة ، ص 1057

فهو يركز على الحاسة السمعية في تعلّم اللغة إذْ يقول – مشيراً إلى تغيُّر ملكة العرب بسبب توسعهم واختلاطهم ببقية الشعوب من العجم – : «... فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم. والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع. وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه..»[18]

الملاحظ أن كلام ابن خلدون يكاد لا يخلو من التأكيد على الملَكة ودورها في علوم اللسان جميعها. فالملَكة اللغوية أمر راسخ في وجدان الإنسان يرافقه مع اللغة، إذ اللغة عنده تبدأ في الوجدان وتمّر على اللسان وتنتهي في الخط. مصبّها إذن أبعد من الشفاه، إذا أردنا أن نأخذها من معدنها الصافي، كان علينا أن نستقيها من الوجدان ذاته.

وابن خلدون يجعل الملكات متعددة ومتباينة بتباين الأمم. كما يرى أنّ هذه الملكة قد تتغيّر وتتأثر بالبيئة التي توجد فيها. فهو يبيّن بأن لغة العرب قديماً: « إنما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول، كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا. فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم.»[19] ونراه يفضل ملكة اللسان العربي على غيرها، ليس تحيزاً إلى العنصر العربي—كما قد يتوهم البعض— وإنما إنصافا لهذا اللسان العربي المبين، وإدراكاً لما يتميز به من الخصائص والمزايا اللغوية والأدبية والفنية بين الألسنة. ولا نغالي إذا قلنا إنّ الترجمة من الألسنة الأخرى إلى اللسان العربي أسهل بكثير من الترجمة من اللسان العربي إلى الألسنة الأخرى..

وعندما يتكلم ابن خلدون عن الملكة اللسانية يربطها بالقصد، أي أنه يتكلم عن ربط الألفاظ بما تدل عليه من المعاني. وهنا تبدو الملَكة شبيهة بالفصاحة التي عرفها البلاغيون بأنها « ملَكة في النفس يقتدر بها صاحبها على تأليف كلام بليغ مطابق لمقتضى الحال، مع فصاحته في أيّ معنى قصده.» [20].

هذا، ويبيّن ابن خلدون أنّ الألفاظ إنما هي تعبير عمّا في النفس. وهذا شبيه إلى حد كبير بما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني من أنّ المعاني سابقة للألفاظ، بحيث تكون الألفاظ تعبيراً عمّا استقرّ في النفس من المعاني. وهذا يدخل في إطار علاقة اللغة بالفكر، وأيهما أسبق. وإذا كانت هذه مسألة جدلية بين علماء النفس في العصر الحديث، فإنّ علماء العربية قد فصلوا فيها منذ القديم، بدءاً من سيبويه إلى ابن جني الجرجاني فابن خلدون.. وغيرهم. وفي هذا يقول ابن خلدون: « اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده. وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان. وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم.» [21]

لقد كان مذهب دي سوسور رائد اللسانيات الحديثة أنْ بنى منهجه على عدة ثنائيات، من أهمّها ثنائية اللغة والكلام.. فاللغة عند دي سوسور نشاط جماعي مشترك، وأما الكلام فهو نشاط فردي يتميز به المتكلمون بعضهم عن بعض. وثنائية اللغة والكلام عند دي سوسور تقابل إلى حد كبير ما يسمى عند تشومسكي بالملَكة والتأدية التي تعدُّ من أهمّ الأسس التي تنبني عليها النظرية التوليدية التحويلية عنده، إذْ ثار بها على النظريات السلوكية التي ربطت فعل اللغة بالمنبهات والاستجابات لها، وأهملت دور التفكير الإنساني.. كما عارض بها المنهج الوصفي الذي يتوقف عند حدود وصف اللغة ولا تعداها إلى تفسير العمليات العقلية التي تنتج عنها اللغة..

---

18 المصدر نفسه ، ص 1057- 1058

19 المصدر نفسه: ص1059

20 السيد أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة– دار الفكر، بيروت / طبعة مجددة (1421هـ- 2000م) ص9 وما بعدها.

21 ابن خلدون: المقدمة، ص 1055

وهذه الفكرة المتعلقة بمستعمل اللغة، وهي التي تتصل عند دي سوسور—كما بيّنّا – بالكلام La parole؛ وتتصل عند تشومسكي بالكفاءة La compétence هي ما يعبر عنه ابن خلدون بالملكة ، كما ذكرنا آنفاً، إذ يقول: (فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان. وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم.)

ونجد ابن خلدون يشير من جهة أخرى إلى تعدد وسائل التواصل، وهو ما يدخل ضمن ما يسمى في الدراسات الحديثة بالسيميولوجيا (أي علم الإشارات) وهو العلم الذي نوّه به دي سوسور، ورأى أنه أرحب مجالاً وأوسع استعمالا من اللسانيات. ذلك أنه يشمل أشكال التواصل الظاهرة وغير الظاهرة، ولا يقف عند حدود استعمال الملكة اللسانية التي تقوم على أداة واحدة هي اللغة المنطوقة أو المكتوبة.. بل إنّ ما هو غير لساني يمكن أن يطلق عليه أيضا مصطلح « لغة « لكن بما يعني طريقة التواصل لا بما يعني التخاطب اللساني؛ ومن ذلك مثلاً: لغة الإشارات التي يستعملها الناس في تواصلهم بدلاً من الكلام، وكذلك كل ما يتصل بالإشارات، سواء أكانت إشارات للتواصل المباشر، أو إشارات أخرى متعارف عليها كإشارات المرور، أو إشارات في نطاق معين كالإشارات التي تتعلق بعلم معيّن أو فنّ بذاته على مستوى فئة معينة، كما يحدث في فهم بعض الخطابات عن طريق ما تتضمنه عباراتها من الإشارات غير الظاهرة التي تعتبر رموزا (شيفرات) يتم اعتمادا عليها معرفة المغزى من الخطاب، والوصول إلى مقاصده، وتحليل أبعاده. وهنا يتم إفساح المجال إلى ما قد يدخل من الرموز (الشيفرات) الأخرى التي لم تكن مقصودة لدى منشيء الخطاب، فينتج عن ذلك تدعيم من المتلقي لهذا الخطاب قد يصل به إلى حد إنشاء خطاب آخر مستمدّ من شيفرات الخطاب الأصلي. وهذه الشيفرات لا تكون واحدة عند الجميع، فقد يجتمع بعضها عند أكثر من متلقٍ، وقد ينفرد بعض المتلقين عن غيرهم بفهمها وتحليلها.

فابن خلدون يستعمل ما يدل على هذا النوع من التواصل بعبارة (**دلالة غير الكلمات**) بقوله: « ... وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد **لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني**. مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور أعني المضاف ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال أي الحركات إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى.، وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب.وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة.» فقوله (دلالة غير الكلمات على كثير من المعاني) يدخل ضمن المجال السيميولوجي (السيميائي) حيث سعة الدلالة، ذلك أنّ « للسيميولوجيا قدرة قول الشيء الكثير حول العديد من المجالات المتنافرة التي لا توحد بينها إلاّ وظائف الدليل وتحليل البنيات الهرمية، واكتشاف العلاقات بين الدلائل في أوسع المجالات، وتحليلها بوصفها دلائل وأشكالا رمزية. ومع ذلك فليست السيميولوجيا علْما توسعياً، ذلك أن الظواهر التي تدرسها يمكن أن تحلل تحليلا غير سيميولوجي من قبل العلوم الأخرى.» [22]

ملكة اللغة واكتسابها :

العجمة عند ابن خلدون نوعان: عجمة نسب وعجمة لغوية. فأما العجمة بالنسب فهي مرتبطة بالمدنية والحضارة وممارسة الصناعات والنشاطات التقنية. ويقصد بالنسب (الجنس) إذْ يتكلم عن العرب والعجم.. وأما العجمة اللغوية فالمراد بها تأثير لغةٍ ما على المتعلّم بحيث لا يمكنه معها أن يحسن استعمال لغة أخرى بالمستوى نفسه إلاّ نادراً. فيكون فصيحا في لغته، لكنه يكون كالأعجمي من جهة تلك اللغة التي لم يتعلمها.

وهذا ما نجده يوضحه قائلاً: « ولا يعترض ذلك بما تقدم بأن علماء الإسلام أكثرهم العجم لأن المراد بالعجم هنالك عجم النسب لتداول الحضارة فيهم التي قررنا أنها سبب لانتحال الصنائع والملكات ومن جملتها العلوم. وأما عجمة اللغة فليست من ذلك وهي المرادة هنا... وأما عجمة اللغة فيبيّن حقيقتها بقوله: « ... وقد تقدم لنا أن اللغة ملكة في اللسان وكذا الخط صناعة ملكتها في اليد فإذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة صار مقصراً في اللغة العربية لما قدمناه من أن الملكة إذا تقدمت في صناعة بمحل فقل أن يجيد صاحبها ملكة في صناعه أخرى وهو ظاهر. وإذا كان مقصراً في اللغة العربية ودلالاتها اللفظية والخطية اعتاض عليه فهم

[22] مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة – ط/ إفريقيا الشرق – الدار البيضاء(1987) ص9

المعاني منها كما مر. إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها إلى العربية كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من العربية. وكذا أيضاً شأن من سبق له تعلم الخط الأعجمي قبل العربي. ولهذا نجد الكثير من علماء الأعاجم في دروسهم ومجالس تعليمهم يعدلون عن نقل التفاسير من الكتب إلى قراءتها ظاهراً يخففون بذلك عن أنفسهم مؤونة بعض الحجب ليقرب عليهم تناول المعاني.» [23]

ثالثاً: علم البيان عند ابن خلدون :

يسير ابن خلدون في تقسيمه لعلوم البلاغة على نهج السكاكي، بجعلها علوما ثلاثة، غير أننا نجده يستعمل مصطلح البيان للدلالة على علم البلاغة، ويستعمل مصطلح (البلاغة) للدلالة على علم المعاني؛ أما البديع فمصطلحه ثابت عنده. إذ يقول: « ... اشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالات التي للهيآت والأحوال والمقامات وجعل على ثلاثة أصناف: فالصنف الأول: يُبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى (علم البلاغة) والصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلناه ويسمى (علم البيان). وألحقوا بهما صنفاً آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق: إما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود لإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك ويسمى عندهم (علم البديع)..» [24]

إنّ ما أطلق عليه ابن خلدون مصطلح (علم البلاغة) هو ما يسمى في البلاغة بـ (علم المعاني) ؛ وأمّا ما أطلق عليه مصطلح (علم البيان) فهو علم البيان نفسه، وهو ذلك الفرع الثاني المعروف من علوم البلاغة، الذي يعنى بالصور البيانية؛ وبقي عنده (علم البديع) بتسميته المعروفة اليوم في البلاغة العربية . ولكنه يطلق أحياناً مصطلح (علم البيان) كذلك على ما يعرف اليوم بـ (علم البلاغة).

وتسمية (علم المعاني) بـ (علم البلاغة) ينفرد بها ابن خلدون، إذْ لم نجده عند أحد من البلاغيين أو غيرهم من فعل ذلك. بخلاف البيان، فقد جعله كثير من البلاغيين مرادفا للبلاغة، كما هو الشأن عند الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني، وغيرهما. فالجرجاني، وهو يتكلم عن مقاييس مسألة استعمال اللغة، وسوء تقدير الناس للبيان، يقول :»... إلاّ أنك لن ترى على ذلك نوعاً من العلْم قد لقي من الضيْم ما لقيه، ومني من الحيْف ما مني به؛ ودخل على الناس من اللط في معناه ما دخل عليهم فيه... فكل من عرف أوضاع لغة من اللغات عربية كانت أو فارسية، وعرف المغزى من كل لفظة ثم ساعده اللسان على النطق بها، وعلى تأدية أجراسها وحروفها، فهو بيّنٌ في تلك اللغة، كامل الأداة، بالغٌ من البيان المبلغ الذي لا مزيد عليه، مُنْتَهٍ إلى الغاية التي لا مذهب بعدها، يسمع الفصاحة والبلاغة والبراعة فلا يعرف لها معنى سوى الإطناب في القول، وأن يكون المتكلم في ذلك جهير الصوت، جاري اللسان، لا تعترضه لكنة، ولا تقف دونه حبْسة، وأن يستعمل اللفظ الغريب والكلمة الوحشية... [25] .

فالبيان عند الجرجاني يشمل البلاغة والفصاحة وغيرهما. وأما (علم المعاني) فهو عنده (معاني النحو) وكذلك استعمل الزمخشري مصطلح (علم المعاني) إذْ قال في القدرة على تفسير القرآن: « إنه لا يكمل له إلاّ رجل برع في علْميْن مختصيْن بالقرآن، وهما: علم المعاني وعلم البيان.» [26] ثم استقر هذا المصطلح عند السكاكي فيما بعد. [27]

---

[23] ابن خلدون: المقدمة، ص 1055.
[24] المصدر نفسه:ص 1066
[25] دلائل الإعجاز: تح: د/ ياسين الأيوبي، المكتبة لعصرية / بيروت،ط2000/1، ص66 ،67
[26] الزمخشري: الكشاف: 1 / 3 ؛ وينظر: د. محمد نايل: البلاغة بين عهدين . ص127 .
[27] ينظر: مفتاح العلوم، للسكاكي، ص 70.

ويتتبع ابن خلدون مسيرة الدرس البلاغي مبينا أن البلاغة منذ عهد السكاكي لم تتغير، بل بقيت على النهج نفسه.. ويذْكر عدة مؤلفات تابعة لمفتاح السكاكي، فيقول: « ... وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم (البيان) وهو اسم الصنف الثاني لأن الأقدمين أول ما تكلموا فيه. ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية فيها. ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن محض السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض أجزائه. وأخذه المتأخرون من كتابه ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد كما فعله الطيبي في كتاب التبيان وابن مالك في كتاب المصباح وجلال الدين القزويني في كتاب الإيضاح، والتلخيص وهو أصغر حجماً من الإيضاح. والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره..» [28].

يتجلّى من كلام ابن خلدون أنّ العناية بمفتاح العلوم للسكاكي كانت قد أوقفت مسيرة الدرس البلاغي لدى العلماء بعده، إذ انبروا يشرحونه تارة، ويوضحون مسائله، ويلخصونها تارة.. ومهما يكن من أمر فإنهم لم يجتهدوا ذلك الاجتهاد الذي عهدته البلاغة في زمن ابن سنان الخفاجي وعبد القاهر الجرجاني، ثم الزمخشري من بعدهما..

ولكن لا بدّ من الإشارة ههنا إلى ما قام به الرازي في كتابه: (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) متأثراً بكتابي عبد القاهر الجرجاني (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة)، حتى إنه يُعدّ شرحاً لهما، ما قدمه الرازي في هذا الكتاب ، على الرغم من قيمته العلمية، لم يُكتب له من الذيوع والانتشار مثل ما كان لشروح المفتاح؛ وذلك لسببيْن بارزيْن في نظرنا؛ **أولهما**: أنّ كتابَيْ الجرجاني لم يحظيا من العلماء ، في زمانهما، بما حظي به مفتاح السكاكي من العناية والاهتمام، على الرغم ممّا كان عليه كتاب الرازي من الترتيب والتنظيم وحسن التبويب لمسائله التي غلب عليها طابع الإعجاز البلاغي ؛ **والسبب الثاني**: أنّ الرازي سلك فيه غير المسلك الذي سلكه الجرجاني، إذ كان تأثر الرازي بالمنطق واضحاً جليّاً أكثر ممّا عُهد لدى الجرجاني، كما أنّ منهجه في تناول المسائل وعرضها وتحليلها مختلف عن منهج الجرجاني، وإن كان متأثراً به من حيث الفكرة والموضوع..

ولقد أسهب ابن خلدون في الحديث عن مسائل البلاغة سواء أكان ذلك في علم المعاني، أم في علم البيان أم في علم البديع. وعالج قضايا بلاغية كثيرة، لا يتسع المقام لاستعراضها ههنا. غير أنّ الذي يمكن ملاحظته في هذا الشأن هو أنّ ابن خلدون يستعمل تارة مصطلحات قديمة كتلك التي استعملها الجاحظ وأبو هلال وابن الأثير وغيرهم، وطوراً نجده يستعمل مصطلحات جديدة كالتي يستعملها المحدثون، على الرغم من سبقه الزماني..

الملكة البيانية والذوق:

يتحدث ابن خلدون عن نوع آخر من (الملَكات) في ثنايا حديثه عن علوم البلاغة وفنونها، ولا سيما علم البيان. ويربط هذه الملَكة بقضية (الذوق). لكنه يقدّم الملَكة على الذوق، إذْ يرى أنّ الملَكة شبيهة بالسليقة إلى حد كبير. ذلك أنّ « الملكات إذا استقرّتْ ورسختْ في محالّها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحلّ..» [29] وهذه الملكة التي يتناولها أثناء الحديث عن البلاغة يمكن أن نطلق عليها (الملكة البيانية) لأنها تتعلق بجانب البيان من طرق التصوير الفنّي. وهو ما يشمل المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية، وما يتصل بها. وهي جزء من الملكة اللسانية.

وأمّا الذوق فهو وسيلة لتمييز الكلام بعضه من بعض، ومجاله علم البيان. وهذا يدلّ على أنّ الملَكة أوسع مجالاً وأكثر اتصالاً بالعلوم، من الذوق الذي يكون في علم البيان، حيث أساليب التصوير الفني التي يتجلى فيها حسن البيان، بوصفه خاصة للغة الأدبية.. وطبيعي أن يكون حسن البيان خاصة تتجاوز مجرد البيان إلى صفات من الحسن لا تتحقق في اللغة العادية. غير أنّنا

[28] ابن خلدون: المقدمة، ص 1066 وما بعدها .
[29] المصدر نفسه، ص 1085 .

نجد ابن خلدون يجعل الملكة التي تكون على مستوى علم البيان قريبة جداً من الذوق، بل قد تكون هي الذوق بعينه. فقد « استُعير لهذه الملكة، عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان..» [30]

رابعاً: علم الأدب عند ابن خلدون :

إنّ العلوم الثلاثة السابقة للأدب تعتبر وسيلته ومادته في آن واحد، أمّا الموضوع فلا موضوع محدداً لهذا العلْم جرى عليه الاصطلاح العلمي، كما جرى على النحو واللغة والبيان. وإنما هو شامل للكثير من الموضوعات التي طرقها الكتّاب والأدباء، وتناولها الرواة، كأشعار العرب وخطبهم وأخبارهم والاطّلاع على علومهم اللسانية والبيانية والشرعية، وغيرها..

يقول ابن خلدون: « هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها. وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الإجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها. وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة. والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه.» [31]

فهو يرى بأن الأدب لا موضوع له، ويريد بذلك أنّ موضوعه (أي: الأدب) واسع يشمل العلوم الأخرى، فلا حصر لموضوعاته من حيث إنه يتناول العلوم والفنون على اختلافها. وبعدما يدلي ابن خلدون برأيه في هذا الباب، ينتقل إلى استعراض ما قاله العرب في تعريفهم للأدب، فيقول: « ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث. إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها. وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها. وكتب المحدثين في ذلك كثيرة. وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلحينه. وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قادحاً في العدالة والمروءة.»[32]

فالأدب يشمل النحو واللغة والبيان وغيرها من العلوم والفنون كالعلوم الشرعية (قرآن وحديث) وشعر العرب ونثرهم، ويشمل الغناء كذلك لأنه كان وسيلة العرب للحفاظ على أشعارهم. والشعر ديوان العرب كما يقال، لذا كان الحفاظ على هذا الديوان من أهمّ ما يشغلهم، لأنه رمز وجودهم، يخلّد ذكْرهم وينقل أخبارهم، ويحمل إرثهم.

وقد قسم ابن خلدون الأدب عند العرب إلى: فن الشعر، وفن النثر، ويجعل لكل فنّ منهما درجات ومراتب من حيث الجودة، والتأثير والاستحسان. وتناول ابن خلدون من خلال ذلك موضوعات متعددة ذات صلة بالإنتاج الأدبي وبقضايا النقد الأدبي، كما تحدث عن الخصائص اللغوية والبيانية (البلاغية) للأدب. أمّا النص القرآني فيطلق عليه ابن خلدون « الفرقان « فلا هو كالشعر ولا هو كالنثر. لأنه يتفرّد بالإعجاز في لفظه ومعناه.

[30] ابن خلدون: المقدمة، ص 1086

[31] المصدر نفسه، ص:1087.

[32] ابن خلدون: المقدمة، ص:1095.

كما تناول ابن خلدون عدة قضايا تدخل ضمن علم الأسلوب، واللسانيات، والنقد الأدبي، ومزج بين هذه الأفكار المتنوعة في دراسة الأدب، جاعلاً الغاية هي التعبير السليم عن المقاصد والأغراض بلسان عربي مبين، والقيام بوظيفة التبليغ على أحسن حال.

وختـــاماً.. نلخص أهمّ التحديدات التي تميّز بها الفكر الخلدوني في مجال البحث اللساني، متمثلةً في مصطلحات: (علم النحو وعلم اللغة وعلم البيان وعلم الأدب). مع ما يمكن الوقوف عليه في ثنايا دراسة هذه المصطلحات من مصطلحات أخرى وأفكار وآراء تتصل بها؛ وهي آراء قيّمة تنمّ عن نظرة علمية ثاقبة.

*** مصطلح « علم النحو »:**

علم النحو عند ابن خلدون مقدم على بقية العلوم، إذْ يأتي في المرتبة الأولى قبل اللغة، ولا يقتصر على حركات الإعراب، بل يشمل التراكيب، وهو متصل عنده بالدلالة والإفادة، كما أنه يخضع للتطور والتغيير. ومن مظاهر التغيير في النحو عنده أنه يمكن تبديل بعض الجوانب في النظام النحوي واستبدال قاعدة بأخرى، لأنّ النحو من اجتهاد النحاة، وليست اللغة كذلك، وإنما هي كالجبلة التي لا يمكن الإقلاع عنها.

*** مصطلح « علم اللغة »:**

تأتي اللغة عند ابن خلدون بعد النحو، وهي لم تتقدم على النحو لأنها وضع ووصف لما تكلمت به العرب، وليس في اللغة اجتهاد لتوجيه كلامهم والإبانة عن مقاصده. وهي عنده ثابتة غير متغيرة، وربما بدا للبعض أنّ رأيه هذا مخالف لما عليه إجماع اللسانيين من أن اللغة هي التي تنمو وتتطور، أما النحو فهو النظام الذي يتميز بالثبات أكثر.. غير أن ابن خلدون يذْكر ثبات اللغة وهو يتكلم عن لغة العرب، وهو يعني باللغة الثابتة لغة العرب الفصحاء التي نبعت من سليقتهم وفطرتهم، فلا يجوز التكلّم بغير لسانهم، وعلى غير سمتهم.. فاللغة يغلب عليها طابع الثبات عنده لأنها ملَكة راسخة مستقرة لدى العرب.

*** مصطلح « علم البيان »:**

البيان عند ابن خلدون يتعلق بتمام الإفادة في التعبير عن الأحوال المختلفة بما يناسبها، واختيار المقال بحسب المقام؛ وهذا ما يدخل في فن البلاغة. بل إن علم البيان عنده يعني علم البلاغة. وقد يكون علم البيان عنده بالمعنى المعروف في الدرس البلاغي، وهو ذلك الفرع الثاني من فروع علم البلاغة، كما صاغها السكاكي إلى يوم الناس هذا.

*** مصطلح « علم الأدب »:**

المراد بالأدب عند ابن خلدون هو تلك الثمرة التي يجنيها المطّلع على مختلف العلوم والفنون والثقافات، وهو يشمل في بعض مناحيه بقية الأركان. (النحو واللغة والبيان) ويزيد عليها فنوناً أخرى تتعلق بالأسلوب، ومنها ما يتعلق بالغناء الذي هو وسيلة العرب للاستمتاع بأشعارهم ولحفظها من الضياع.. ويتجلّى من خلال كلام العرب منظومه ومنثوره، ومن خلال أيامهم ومخاطباتهم وما يتصل بحياتهم. فهو السجلّ العام الذي يضمّ ما يتصل بوجودهم وكيانهم.

في الختـــــام ..

نستخلص أنّ المصطلحات اللغوية في الفكر الخلدوني مصطلحات عربية أصيلة، مستمدة من التراث العربي، غير أنّه ينفرد أحياناً بوضع بعض المصطلحات، كما ينفرد أحياناً أخرى بطريقته في توجيه دلالات المصطلحات الشائعة. وسنورد فيما يأتي نماذج من

هذه المصطلحات مع ما يقابلها في الدراسات الحديثة. لنتبيّن من خلالها مدى تطور الفكر اللساني عند ابن خلدون، مع الإشارة إلى أهمية تطوير البحث في هذا المجال.

يستعمل ابن خلدون مصطلح: علوم اللسان مقابل علم اللغة؛ و يستعمل مصطلح: لسان العرب أو اللسان العربي مقابل اللغة العربية؛ و يستعمل مصطلح الملَكة مقابل المهارة (في اللغة) ومقابل الذوق(في علم البيان / الأدب)؛ و يستعمل مصطلح العلم بالكيفية ونفس الكيفية مقابل الملَكة والتأدية (عند تشومسكي)، ومقابل الكلام واللغة (عند دي سوسور). و يستعمل مصطلح علم البلاغة مقابل علم المعاني (في البلاغة)؛ و يستعمل مصطلح علم البيان مقابل علم البلاغة؛ ويستعمل كذلك مصطلح علم البيان مقابل علم البيان (الفرع الثاني من فروع البلاغة)؛ و يستعمل مصطلح المتكلّم مقبال المرسل أو الباعث؛ و يستعمل مصطلح السامع مقابل المتلقي أو المخاطَب أو المرسَل إليه.

هذه بعض المصطلحات بحسب ما يسمح به المقام ههنا، والملاحظ على هذه المصطلحات أنها دقيقة تؤدّي دلالاتها بوضوح، ذلك أنّ المصطلح عند ابن خلدون مستمدّ من العلْم الذي يختص به أو الموضوع الذي يتناوله. كما يلاحَظ على ابن خلدون أنه لا يهتمّ بتأصيل المصطلحات بقدر ما يهتمّ بالبحث في الموضوعات التي تشير غليها هذه المصطلحات، وعلى الباحث، إن هو أراد معرفة ما يقصده ابن خلدون من مصطلح ما – أن يتتبع ما قاله في الموضوع الذي يتناوله ذلك المصطلح، حتى يتمكن من فهم معناه وإدراك مغزاه.

لقد كان لابن خلدون إلمام كبير واطلاع واسع بعدة علوم وفنون، ولم يشغله البحث في شؤون المجتمع والعمران وتاريخ الأمم عن البحث في قضايا أخرى، وفي مقدمتها علوم اللسان العربي التي حظيت عنده بمعالجة جديرة بالطرح والدراسة والتحليل، وهو ما ننبّع عليه في إطار تطوير البحث اللساني في التراث العربي والإسلامي..

SUMMARY

THE LINGUISTIC IDIOM TO IBN KHALDOUN WITHIN MODERN LINGUISTIC STUDIES

Abdelalim Boufatah*

This research deals with the issue of Ibn Khaldoun's linguistic idiom in the light of modern linguistics. Ibn Khaldoun suggests many valuable linguistic viewpoints, which can be used in developing and renewing the Arabic lingual research.

One of the main concerns of Ibn Khaldoun is the linguistic idiom that we see in his studying and discussing the linguistic issues of other linguists and grammarians. He presented several concepts and expressions that were with linguists as 'Context' and 'Speech'. These two concepts were known before by Al-Jāḥiẓ, in addition to two other concepts that are "analysis" and "expression" and other rhetorical and grammatical concepts.

Ibn Khaldoun speaks about "linguistics" and "philology", he considers the former wider and more inclusive than the latter, knowing that there is a difference between modern linguists in these two concepts, some consider both of them as one unit, whereas others differentiate between them.

Ibn Khaldoun uses also the concept of "Literature" as the fruit, which the reader of different sciences, arts, and cultures picks. This concept entails the rest of areas of linguistic sciences, and adds more arts concerning the style and other aspects of creativeness.

We find within Ibn Khaldon other new concepts and expressions that are very significant in this area of research, among them is using the concept "tongue" instead of "language", and "sciences of tongue" instead of "sciences of the language".

In some occasions, Ibn Khaldoun uses concepts that are current among linguists and grammarians, but with different connotations that to its usual ones. This is quite evident by using the concept "linguistic faculty" in his speech about learning grammar, and in using the concept "diction". Once with the general con-

* Prof. Dr., Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Letters and Languages, University of Laghouat, Algeria (abdelalimboufatah@yahoo.fr).

cept, which means "rhetoric" with all its branches, and sometimes sues the concept "rhetoric science" that is also a branch of sciences of rhetoric according to El Sekkaki.

Ibn Khaldoun uses concepts that are identical with what has become current in modern linguistic studies, for example, he emphasizes the importance of the faculty and he relates it to the intention, this is one of the basics of modern pragmatics. Ibn Khaldoun speaks about "the "denotation of other than words on meanings". This is analogous to the concept "semiology" that was pointed out by Du Saussure who focused on its significance.

Ibn Khaldoun gives a great importance to the faculty, and he divides it into two types: inherited and acquired. The first one is instilled into the human being and is accompanied by the language, whereas the second is acquired through practice and drills. It relates the faculty with faculty of hearing. According to Ibn Khaldoun, the most important aspect where we see this faculty is the acoustic aspect that is why he related it to hearing in his famous saying: "hearing is the father of the linguistic faculties". The two faculties have many other subordinate branches according the fields of the human creativity.

Ibn Khaldoun differentiates among these faculties, in the field of language, he uses the concept "faculty" and "skill" and in the field of diction or literature, he uses the concept "faculty" and "taste".

Ibn Khaldouns has other important concepts in other fields, like in didactics of language, where he uses the following concepts: "science of how" and "self how" instead of "the faculty and the performance" and these two are from the basics of Chomsky's famous generative transformational theory.

The sciences of language in general and the linguistic idiom in particular has obtained great attention from the scholar Ibn Khaldoun. He provided a very valuable and precious notes that are worth studying and analyzing, due to the very significant ideas and valuable opinions that have a lot of things in common with the developments in modern linguistic studies.

المصادر والمراجع :

- الجرجاني ، عبد القاهر : دلائل الإعجاز: تح: د/ ياسين الأيوبي، المكتبة لعصرية / بيروت،ط2000/1.
- ابن جني ، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية،د.ط / 1952.
- ابن خلدون ، المقدمة ؛ ط/ دار الكتاب اللبناني- بيروت – لبنان: ص 1084.
- داسكال ، مارسيلو: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة – ط/ إفريقيا الشرق – الدار البيضاء(1987).
- زكريا ، د/ ميشال: الألسنية (علم اللغة الحديث: مبادؤها وأعلامها) ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط2/ 1404 هـ/ 1983م.
- الزمخشري ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر: أساس البلاغة ، دار الكتب المصرية بالقاهرة، د.ط (1341هـ-1922م).
- السكاكي ، ابو يعقوب : (أبو يعقوب): مفتاح العلوم: ضبط: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (1987م)
- الشايب ، د/ أحمد : الأسلوب – مكتبة النهضة المصرية ، ط8 / 1411هـ-1991م
- الصالح ، د/ صبحي: دراسات في فقه اللغة – دار العلم للملايين ،بيروت، لبنان؛ طبعة 2004م
- عتيق ، د/ عبد العزيز: المدخل إلى علم النحو والصرف ، دار النهضة العربية- بيروت (1974)
- مدكور ، د/عاطف: علم اللغة بين القديم والحديث: دار الثقافة للنشر والتوزيع- مصر (1986م) ،
- ماريوباي : أسس علم اللغة : ترجمة وتعليق: د/ أحمد مختار عمر، عالم الكتب، /ط2 (1408هـ / 1987 م)
- أبو مغلي ، د/ سميح: في فقه اللغة وقضايا العربية – دار مجدلاوي – عمان – الأردن (1987م).
- نايل ، د/ محمد : البلاغة بين عهدين (في ظلال الذوق الأزلي وتحت سلطان العلم النظري) ، دار الفكر العربي، القاهرة (1994).
- الهاشمي ، السيد أحمد : جواهر البلاغة– دار الفكر، بيروت / طبعة مجددة (1421هـ- 2000م).